

المقالة السادسة والعشرون¹

في من سقط بسبب الغفلة ويحتج بالخطأ

أيها الأخ إذا اشتبهت سيرة العبادة فقد آثرت عملاً حسناً إن حفظته إلي النهاية ، فق إذا وأصغ إلي ذاتك مثل حكيم مثل عابد لا كغيره فليس صراعنا بإزاء لحم ودم بل بإزاء الرؤساء والرئاسات نحو السلطات ، بإزاء ضابطي عالم ظلمة الدهر ، بإزاء جنود الخبث المصارعين في السماء فُق إذا إلي النهاية لكي لا تغلب من قبل رقادك وعدم الإصغاء لذاتك فتقول بجهالة قد أفضيت إلي رتبة عابد وما وجدت هناك طريق خلاص فلماذا أيها الأخ تتكر نعمة الرب ، لم تستهجن سيرة العبادة لعلك تشاء أن تنتفع بغير أن تتوجع من أجل نفسك بل تتخدع لشهواتك وللذات الأفكار وتحتج بسيرة العبادة لأنك لو حفظت وصايا الرب وأحببت تقواه لكان حفظ نفسك ، فأولاً إنك لم تحفظ قانون سيرة العبادة ورقدت في صلواتك الجامعة ، أحببت أن تسلك مجانياً واحتقرت من هم أعظم منك قدراً ، أحببت استعلاء الرأي أكثر ، أبعدت الحمية ، ولازمت كثرة الأكل ، السهر لم تحبه ، أحببت كثرة النوم الذي لا يشبع منه ، الطهارة لم تحبها وأحببت الدنس ، الطاعة لم تؤثرها وأحببت عدم الطاعة ، الغضب والسخط لم تبغضهما وأحببت المحك والحدق ، السكوت والصلاة ما أحببتهما وأحببت الصراخ واللعن والحلف ، الظلابة والورع لم تحفظهما وأحببت المزاح مع الضاحكين ، الصمت والتقويم ما أحببتهما وأحببت اكثار الكلام والاعتياب ، عدم القنية ما أثرتها وأحببت احتشاد الفضة ، النسك والتعب لم تحبهما وأحببت التتعم والبطر ، العمل بيدك لم تؤثره وأثرت البطالة ، أكثر السلامة ما أثرتها وأحببت الشرور بالإنقلاب الردي ، التوجع للمحزونين لم تملكه وأحببت أن تكون فظاً وغير متوجع لأحد ، لم تؤثر أن تحتمل حزناً وتعبيراً من أجل الرب وتقت إلي الجلوس الأول والمدائح الباطلة ، محبة الله وخشيته لم تحفظهما أما الإزدراء به ومقت الأخوة فأحببتهما أكثر ، وماذا أقول أيضاً : أبغضت المناقب السمائية وأحببت الأشياء الأرضية وتحتج بسيرة العبادة . أما عرفت أنه مكتوب أن الرب يببذ كافة المتكلمين بالكذب ، وأيضاً لا تتكلموا علي الله ظلماً فإن الله هو القاضي . أرايت أيها الأخ ان مناهي العلة ليست من آخرين ، عد إلي ذاتك وأرجع إلي الرب بكل قلبك فإنه لا يريد موت الخاطيء مثل ما يشاء أن يرجع فيحيى لأن الرب يشاء أن الكل يخلصون لأنه صالح ، أجرحت ! تقدر أن تبرا . أسقطت ! قم . لا تبدل ذاتك إلي الهلاك فإن المخلص نفسه قال إن الأصحاء لا يحتاجون طبيباً بل أسوء الحال ، وما جننت لأخلص الصديقين لكن الخطاة ، فلماذا أيها الأخ تفهم فأشير عليك : أجلس في السكوت وأحضر بين عينيك خشية الرب وأجمع أفكارك ، أجلس كقاض وتأمل عبور الزمان الماضي منذ أقبلت إلي العبادة لكي ما تعرف الأمر الذي صار لك سبباً لمثل هذا العزم وأوسم في قلبك المضرة والسبب ومن أين أتتك هذه الخسارة وأصنع بإزائها الجهاد لأن التاجر إن وقع بين اللصوص أو إن غرق مركبه أو ضاع وسقه فلا ينسى الموضع الذي ضاع فيه الوسق وإن عرض بعد مدة طويلة أن يجتاز بذلك الموضع يتحرز كثيراً ليعبر فيه فلنشابه التجار بل نتحكم أكثر منهم . أولئك إنما أضاعوا غنى بالياً فلا ينسوا الموضع ، وأما نحن فقد أضعنا غنى لا يبلى ونضجع ، فمذ الآن أجلس في خلوة وأجمع أفكارك وأفحص روحك نهراً وليلاً لتعرف مثل هذه الخسارة ، هذا الإنعكاس لئلا تكون منذ الإبتداء قد أقتنيت دالة والدالة عكست ففكر المتدين حسناً

¹ كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في بركة الأنبا مقاريوس طبع سنة 1892

وأفسدت عاداتك وجعلتك غير مستحي ولا خجلان لئلا يكون الضرر قد أتاك من قبل أكثر الكلام لئلا تكون العلة صارت من هيام البطن ، من عدم الطاعة ، من اشتهاه أحوال مختلفة ، من حجة الخدمة والضجر ، فإذا عرفت السبب فأقطع الدالة والوقاحة بالتورع لا تخجل أن تدعى مرانياً من المخالفين لوصايا الرب لأن من البين أنهم ما أحضروا ذكر المرايا لتتمجد بل لتخجل من ذلك وتصير وقحاً عادماً الخجل وغريباً من العزم المقسط ، لأن الذين يدعون بالمتورعين مرانين ، فيقول السيد : أيها المراني أنتزع أولاً الخشبة من عينك وحينئذ تبصر أن تخرج الفداء من عين أخيك لا تخجل من التعبير فتعتاد عدم الأدب فإن الذين لا أدب لهم يلتقيهم الموت لأنه إن كان قلبنا لا يلومنا قلنا دالة قدام الله ، وأيضاً إن عبرتم باسم الرب فأنتم مغبوطون فإن روح المجد وروح الله يستريح عليكم فلا يتألم أحدكم مثل قاتل أو كلص أو كرقيب غريب فإن تألمت كمسيحي فلا تخجل فإن الله يتمجد بهذا الاسم . فمئذ الآن أهرب من الدالة والضحك فإنهما لا يوافقان نفسك ، وكذلك شره البطن أقمعه بالحمية ، ومحبة الفضة بالنسك والزهد في القنية ، وكثرة الكلام بالصمت ، والضجر بالصبر ، وصغر النفس بذكر الخيرات المنتظرة ، وعدم الطاعة بالتواضع . وإن كان العدو الماقت الخير قد أنشأ لك الشر فأحفظ نفسك فيما بعد نقياً ولا تشارك خطايا أجنبية وعلي حسب رأيي أعتقد أن مبدأ الشرور صار لك من الدالة وهذه جعلتك لا تخجل ، فلذلك يقول : الطوبى للرجل الذي يتقي كل شيء من أجل التورع ، أي ربح في العالم أيها الأخ وأي صلاح يمنح الذين يحبونه إذا أخذ إنسان امرأة فذلك بدء الهمة ، أو ولد أبناً فذلك اهتمام آخر ، أو ولد آخر فذلك اهتمام آخر أكثر ، وإذا مات أحدهما فيخلف لوالديه نوحاً ، وإن لحقت الحي صعوبة يتوجعان من أجله أكثر من المائت ، إذا وافت إلي الرجل ساعة الوفاة فشر عليه من موته ان يحسب حزن قرينته ويتركها أرملة وأولاده يتامى ، وهذا كله أيها العابد عتقك منها نير الرب الصالح فكيف تؤثر أن تميل إلي الأشياء القديمة ، فلا تياس من نفسك ولا تقل لا أستطيع أن أخلص ، حب خشية الله من كل نفسك وهي تشفيك وتبرئ جراحاتك ، وتحفظك في المستقبل غير مجروح لأنها بقدر ما أحببت نفسك تقوى الله لا تقع في فخ المحال بل تكون كالنسر الطائر إلي العلو وإن هجعت بعد هذا فإن النفس بمخافة الله تهدم الفضائل الشامخ علوها ويلعب بها الذين أسفل ويغطون عينيها ويستاقونها كدأ إلي الأم الهوان مثل ثور معلق بنير ، فلذلك أيها الأخوة لنهتتم بخلصنا، لنهتتم بساعة الوفاة ، ولنمقت الأمور الأرضية لأن هذه كلها تبقى هنا ، هذه لا تنفعنا في ساعة شدتنا حين نتضرع أن نترك وليس من يستجيب . ويلي ويلي ما هي ساعة الموت حين لا يسافر الأب مع ولده ، ولا الأم ترافق أبنيتها ، ولا المرأة رجلها ، ولا الأخ يرافق أخاه ، سوى عمل كل واحد مهما عمل إن صالحاً وإن خبيثاً ، فمئذ الآن فلنتقدم فنرسل أعمالاً صالحة حتى إذا انصرفنا يستقبلنا في مدينة القديسين ، إن شئت أن نتجح فأقتن الملك صديقاً لك هنا لأنه بمقدار ما تخدمه هنا يمنحك المرتبة وبقدر ما تكرمه هنا يكرمك هناك لأنه كتب : إني أشرف الذين يمدحونني ومن يتهاون بي يهان ، أكرمه بكل نفسك ليؤهلك لإكرام القديسين .

في أي شيء يجب أن تقتنيه ، قدم له ذهباً فضة ، إذا رأيت عرياناً فألبسه، غريباً فأوه ، فإن لم يكن لك شيء من هذه فقدم له ما هو أكرم نوعاً من الذهب والفضة أمانة ، محبة ، حمية ، صبراً ، تواضعاً ، طول روح ، إتقاء الاغتياب ، أحفظ عينيك لئلا تبصر ضلالاً ، ويديك ألا يعمل ظملاً ، وأعطف رجلتك من الطريق الرديء ، عز صغيري الأنفس ، توجع للمرضى، أعطي العطشان قدح ماء بارد ، أعطي الجائع كسرة خبز مما لك ، مما وهبها لك قدم له ، لأن مخلصنا لم يطرح فلسي الأرملة ، وماذا طلب إيليا النبي من الأرملة أليس ماء قليل في إناء وكسرة خبز ، وقيل قام إيليا ومضى إلي صارفة صيدا ودنا من باب المدينة فإذا بامرأة أرملة تجمع حطباً فهتف إيليا وراءها وقال: انتي لي بيديك كسرة خبز ، أتعرف أيها الحبيب بماذا كان الأنبياء يفتنون بقليل من ماء ويسير من خبز وهذا بعد ضيقة من الجوع لأنه كان لهم كافة الحرص في الخيرات المعدة لهم في السموات .

يا أخوتي لنحب طريق القديسين وما دام لنا وقت فلنجلعه ثمراً حسناً للتوبة ، لا تضيع وقتاً موافقاً للتوبة ولا تنتزه في خيالات هذا العالم ولا ترتبط مع الناس السائرين بعدم خشية الله ولا تنافس أعمال المتهاونين بخلاصهم كما يأمرنا الرسول القائل : إن الأحاديث الرديئة تقسد العادات الصالحة . وفي فصل آخر يقول : يا بني أتخذ مشورتى ولا تتركها بل أحفظها لك في حياتك ، لا تذهب في طرق المنافقين ولا تغاير طرق الأثمة ، في أي موضع نزلوا معسكرين لا تمضي هناك ، حد عنهم فإنهم لا يرقدون قبل أن يعملوا الشر قد سلب نومهم فلا يرقدون ، الذين يأكلون خبز النفاق ويسكرون بخمر تجارة الشريعة ، أما طريق الصديقين فتتألاً بالنور هم يسلكونها ويضيئون إلي أن يلمع النهار . ويقول أيضاً : لا تصر رفيق إنسان غصوب ، ولا تساكن صديقاً سخوطاً لئلا تتعلم شيئاً من طريقه فتأخذ لنفسك وهماً . وفي فصل آخر يقول : أطلب إليكم يا أخوتي أن تترقبوا الذين يصنعون الشقاكات والشكوك بخلاف التعليم الذي تعلمتموه وأجنحوا عنهم فإن مثل هؤلاء لا يعبدون ربنا يسوع المسيح بل بطونهم وبالآلفاظ الصالحة وبالتبريكات يخدعون قلوب ذوي الدعة .

فلنهرب إذاً من الطريقة العريضة المؤدية إلي الهلاك ولننوقن إلي الطريقة الضيقة المؤدية إلي الحياة الخالدة ، فلنتوجع هنا بالاختيار قبل أن نتوجع هناك كارهين ، ولنبغض العالم والسيرة العائلية ، ولنصنع لنا طرقاً مستقيمة، فلنحب الحرص ولنكن ملتهبين وغالين بالروح لدى الله ، فلنبتكين وهنا باختيارنا لنستعطف الله فينجينا من البكاء وقعقة الأسنان ، ولنحب النوح فإنه وصية الرب لأنه هو قال : الطوبى للنائحين الآن فإنهم يعزون ، ولنخطر ببالنا يا أخوتي الأحباء أمر النواتية الذين يسيرون في البحر أية معاطب يحتملونها محاربين البحر ويجوزون معظم الأمواج فمتي ما أكمل أحدهم الوقت الذي أنتجر فيه لا يحفل بالمعاطب التي أحتملها محارباً للبحر من أجل الفرح لأنه أخذ كمال أجرته بل ويصير أوفر نشاطاً في سير البحر، فأولئك إذا أكملوا طريقهم يضطرون أن يعودوا إليها . أما نحو يا أخوتي الأحباء إن بلغنا حسناً إلي كمال الجهاد المنصوب لنا فليس لنا أمر يضطرننا أن نستعمل هذا السعي نفسه لأن هذا غير ممكن فالجهاد يا أخوتي قليل وعطية الثواب لا توصف ، فلنستفق في عمل الرب بكل قلبنا وقوتنا ما دام لنا وقت وكما أن مواهبه لا ندم يخامرها والدعوة التي للقديسين هي هكذا وعكسها ما أعد للمضادين منذ القديم فلذلك الطوبى للإنسان المتقي الرب فإنه سيأخذ منه الإكليل المعد للذين أحبوه . وله كل مجد إلي أبد الدهور. آمين.